إرهاصات الدرس البلاغي في صحيفة بشر بن المعتمر
- دراسة وصفية مقارنة -.

The beginning of the rhetorical lesson in the newspaper Beshr bin al-Mu'ammar - comparative descriptive study

bin al-Mu'tamir- Etude descriptive comparative

Les débuts de la leçon rhétorique dans le journal Beshr

د، عمر بوقمرة

جامـــعة حسيبة بن بوعلي الشلف –الجزائر-.

الهاتف:0558014009

dr.bouguemra@gmail. Com

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-12-13	2019-1-27	2019-02-28

الملخص:

لكل شيء بداية ونهاية، وبينهما مراحل مختلفة تقطعها الظاهرة أي ظاهرة، وغالبا مايتوقف فهم تلك الظاهرة على دقة فهم تلك المراحل، والملابسات التداولية التي صاحبتها في مسيرتها. وهذا المقال يسلط الدراسة على صحيفة بشر بن المعتمر البلاغية لأنها تمثل أول مراحل نشأة البلاغة، ويجتهد في الإجابة عن جملة من الأسئلة منها: هل تعد صحيفة بشر بن المعتمر أساس الدرس البلاغي؟ وما هي المسائل البلاغية الكبرى التي وردت فيها؟ وما الذي صار محوريا منها في الدرس البلاغي منذ أن اكتمل في القرن السابع للهجرة؟

وقد استعنت بالمنهج الوصفي في وصف نص الصحيفة وتحليلة، والمنهج المقارن لموازنة ماورد فيها بما استقر علية الدرس البلاغي لاحقا.

الكلمات المفتاحية: الصحيفة؛ البلاغة؛ بشر بن المعتمر؛ التعقيد؛ المقام.

Résumé: Tout a un début et une fin, et entre eux différentes étapes sont Traverseées par Chaque phénomène, la comprendre de ce phénomène dépend souvent de la précision de la compréhension de ces étapes et sur les circonstances pragmatipue qui l'a accompagnée dans sa carrière. Cet article met en lumière le journal Beshr bin al-Mu'tamir dans la rhétorique, car il représente la première étape de l'émergence de la rhétorique et s'efforce de répondre à un certain nombre de questions. Quelles sont les principales questions rhétoriques qui ont été soulevées? Qu'est-ce qui est devenu central dans la leçon de rhétorique depuis son achèvement au septième siècle de la migration؟ Dans cette étude, j'ai utilisé l'approche descriptive pour décrire le texte du journal et son analyse, ainsi que l'approche comparative permettant de comparer le journal à ce qui a été prouvé plus tard dans la leçon de rhétorique.

Mots-clés: journal; rhétorique; Bishr ibn al-Mu'tamar; complexité; contexte.

Abstract : Rhetoric is a broad science that extends to many sciences, so some researchers like to call it an empire of rhetoric, It is divided into three sciences, each of them has many discussions, and is intertwined with the other two sciences, as well as other Arab sciences nearby. Therefore, the researcher faces problems at the conceptual, semantic and local levels, and this study Treat one of those problems.

Therefore, for all science has its beginnings and endings and between them are several stages,passing it sequentially and taking each other, and can not understand this science well understood only by taking note of those stages and understanding its nature, and the relationship between them; Therefore - for example - can not understand the functional rules of grammar - a good understanding - or at least easily - Without knowing the fundamentals of grammar, because understanding the nature and composition of the thing helps to understand the function.

The same is true for the science of rhetoric, because it is not possible to understand the rhetorical rules of various types quickly and forcefully, but to start from a solid knowledge base that paves the way for that understanding. This is not only the history of rhetoric that discovers to the reader the process of this science and its successive stages of development; in the modern era, there have appeared some books Pave the way for the emergence of the science of the history of rhetoric that has been taught in some Arab universities.

This is an analytical descriptive study of Beshr ibn al-Mu'ammar newspaper, one of the most famous linguists in the second century of migration, I was keen to study it for two reasons. The first is the scientific value of this newspaper in the field of rhetoric and criticism in particular and literature in general, despite its small size. The second is the lack of interest among the researchers, not to mention junior students. Because it was not contained in an independent book, but it is included in the book of Albayan wa Tabyin of Aljahiz. This study aims to answer the following questions: Is newspaper of Beshr ibn al-Mu'ammar really the basis of the rhetorical lesson? If so, what are these Foundations? And what is the proof of that from the rhetorical lesson? I have followed the descriptive approach to describe and analyse newspaper text, and the comparative approach to compare it by the rhetorical lesson later.

The main and major result of this study was that despite the many stages of Arab rhetoric that followed the emergence stage in the two eras: the Jahili and the Islamic: the stage of systematic studies with Ibn al-Mu'taz, then the stage of prosperity with Abdul Qahir al-Jarjani, and finally the completion stage with the Sakaki; the stages did not overlook the rhetorical issues posed by Bishr bin

al-Mu'ammar in his newspaper; this is a strong indication of the constant scientific value of this newspaper.

- **مَولِج البحث:**

عبرت البلاغة العربية مراحل عدَّة، وكانت كل مرحلة تقترح عليها قراءة معينة قبل أن تستقر أخيرا على قراءة أبي يعقوب يوسف السكاكي، مُدَّعمة بتلخيصات وشروحات من جاء بعده، وهي قراءة ضيقة كما وصفها المحدثون، لأنها ألقت في قاع البحر كل مفاتيح التأويل إلا مفتاح السكاكي؛ ومعنى ذلك أنها تجاوزت القراءات السابقة الرائعة كقراءة عبد القاهر الجرجاني، وأوصدت الأبواب في وجه القراءات اللاحقة المدججة بالمكتسبات اللسانية الجديدة. إن المتأمل لمراحل البلاغة يوقن أنها لم تُوَفَّ حقها من البحث والدراسة في كثير من جزئياتها وجوانبها. وهذ البحث يجتهد في إضاءة واحد من أهم تلك الجوانب؛ إنها صحيفة بشر بن المعتمر التي حفظها لنا الجاحظ ورواها في ثنايا كتابه "البيان والتبيين" وتناقلها عنه بعض الباحثين، وهي من الأهمية بمكان لما اشتملت علية من آراء نقدية وبلاغية، على الرغم من صغر حجمها، وقلة ورقاتها.

- **من هو بشر بن المعتمر:** هو العلامة أبو سهل الكوفي ثم البغدادي، شيخ المعتزلة، وصاحب التآليف، كان أخباريا شاعرا ومتكلما، وثيق الصلة بالبرامكة[1]؛ لما يجمعه بهم من تشيع، برع في الجدل وقوة الحجة، ورواية الشعر؛ فكان بذلك من فصحاء المتكلمة وبلغائهم، له تصانيف لم يحفظ الدهر شيئا منها[2].

- **ما صحيفة بشر بن المعتمر:** هي بضع ورقات رواها الجاحظ (ت255ه) في كتابه البيان والتبيين في الجزء الأول، ثم تناقلها الناس عنه، وقد أوردها في "باب ذكر الناس من البلغاء والخطباء والأبْيِنَاء والفقهاء والأمراء، ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل". أورد فيه ناسا من الخطباء وآراءهم في البلاغة والخطابة، وهذا الباب تال لباب" البلاغة" ذكر فيه تعريفات البلاغة عند الفرس والروم والهنود والعرب[3]. كما أورد طرفا منها ابن عبد ربه(ت368ه) في كتابه العقد الفريد في الجزء الرابع تحت كتاب" الواسطة في الخطب"، بعنوان " بشر بن المعتمر وابن جبلة"، ابتدأها بقوله:" مر بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة السَّكُوني الخطيب" إلى قولة:" فقال له إبراهيم بن جبلة جعلت فداك أنا أحوج من هؤلاء الغلمة"[4] .

ومن المحدثين الذين أشاروا إلى الصحيفة وشرحوها نجد شوقي ضيف في كتابه:" البلاغة تطور وتاريخ" حيث يقول:" ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إن خير ما أثر عن المعتزلة في البلاغة حتى أوائل القرن الثالث صحيفة بشربن المعتمر المتوفى سنة 210ه، وقد رواها الجاحظ في البيان والتبيين تامة غير منقوصة، ونحن نسوقها لأهميتها الشديدة في تاريخ البلاغة"[5]. والملاحظ أن الجاحظ هو الوحيد الذي اهتم بهذه الصحيفة ونقلها كاملة غير منقوصة، وعنه تناقلها الآخرون متقدمهم ومتأخرهم، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن الجاحظ معتزلي مثل بشر بن المعتمر، وقد عرف عن المعتزلة حرصهم على

الاطلاع على ماعند الأمم الأخرى من السريان - وعنهم نقلوا الفكر اليوناني- وغيرهم، وقد رأينا الجاحظ يورد في كتابه البيان والتبيين آراء اليونان والرومان والهنود في البلاغة والخطابة.

وكما هو معلوم تاريخيا المعتزلة حملوا لواء الدفاع عن الإسلام (من وجهة نظرهم)، خاصة وقد احتدم الصراع بينهم وبين الملل والنحل الأخرى من شيعة وإرجاء وخوارج؛ فكان لزاما عليهم تعلم قواعد الخطابة وأصول البلاغة والاعتناء بها. "وخلاصة القول أن المعتزلة كانوا أكثر الناس عناية بقضية الخطابة، واستنباط أصولها؛ لما كان لها من أهمية عندهم، فقد كانت وظيفتهم الأولى، ووسيلتهم المباشرة في المناظرة والإقناع للظهور على الخصم، والظفر بإعجاب الجمهور وتقديره، وقد كان بشر بن المعتمر من أظهر من اتجه إلى هذه الناحية وعُنِي بها، وكتب في الخطابة وأمور البيان والقول صحيفة نقدية قيمة تعد من بذور البحث البلاغي الأولى، ثم جاء من بعده الجاحظ واستفاد كثيرا من صحيفة بشر وبنى عليها بعد أن وسَّع كثيرا من الآراء، وأعطاها مفاهيم أعمق"[6].

- **هل الصحيفة محاكاة للفكر البلاغي اليوناني:** إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى بحث مستقل يلمُّ شعَث الأدلة المتناثرة في مؤلفات كثيرة، ويوازن بينها ليصل في النهاية إلى ترجيح ما نضحت به الأدلة بلا تعسف ولا تعصب؛ أقول هذا لأن المسألة فيها خلاف يتجاوز أصول البحث في كثير من جوانبها، وهي مسألة شديدة الحساسية؛ فعلى الرغم من أن مسألة المثاقفة مع الآخر من البدهيات إلا أن فريقا من الباحثين يصر على نفي أي علاقة بين النقد العربي والفكر اليوناني عموما والأرسطي خصوصا؛ ومنهم أحمد مطلوب، ومحمد عابد الجابري، ويذهب فريق أخر إلى إثبات تأثر النقد العربي بالفكر الأرسطي؛ ومنهم طه حسين، وإحسان عباس، ومحمد غنيمي هلال، فليس من المصادفة ظهور تلك الترجمات؛ خاصة كتابَي أرسطو: الخطابة، والشعر في العصر العباسي (عصر الانفتاح والمثاقفة والترجمة)، وتبلور أغلب القضايا النقدية العربية[7].

ولا نشك أن المعتزلة في العصر العباسي قد اطلعوا على ماعند الأمم الأخرى من المعارف والعلوم، خاصة السريان واليونان، وقد رأينا الجاحظ في كتابة البيان والتبيين يسوق أراء الفرس، و اليونان، والرومان، والهنود في تعريف البلاغة؛ فيقول:" قيل للفارسي: ماالبلاغى؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني ماالبلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومي: ماالبلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي ماالبلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة"[8].

على أنه يجب التأكيد على أن المعتزلة حين طلبوا معرفة آراء الأمم الأخرى في البلاغة والبيان لم تكن غايتهم التمثل والاعتناق، وإنما كان هدفهم المقارنة بين آرائهم وآراء العرب جاهدين في بناء قواعدها وقوانينها الذاتية، ومن المعلوم أنهم كانوا يدافعون عن الإسلام ويحوطونه من هجمات أصحاب الملل الأخرى؛ فطبيعي أن يحتاطوا أشد الاحتياط فيما يأخذونه من هذه البلاغات، وقد رأينا

الجاحظ بعد نقله لآراء الأمم الأخرى في مفهوم البلاغة قد أعقبه بسيل من آراء العرب في البلاغة والبيان[9].

وخلاصة القول في هذه المسألة أن العتزلة أفادوا من الفكر الأرسطي في البلاغة والنقد والأدب؛ من خلال اطلاعهم على مؤلفاته المترجمة إلى العربية في العصر العباسي، وخاصة الخطابة والشعر، وقد نالت الدراسات البلاغية على أيديهم كثيرا من الثراء والنماء، وفضلهم في ذلك لاينكره أحد، ولكن لما كانت مقترنة بالقرآن الكريم أخطأوا في بعض المسائل؛ فاشتد عليهم إنكار أهل السنة، كمسالة المجاز في القرآن الكريم، والعقل وحدود العلاقة مع النقل، وحدود التأويل التي يجب التوقف عندها.

- **سبب ورود الصحيفة:** وظفت هذا المصطلح تماشيا مع سبب ورود الحديث عند المحدثين، وسبب نزول الآيات عند المفسرين، والمورد عند الأدباء، وهو القصة التي قيل فيها المثل لأول مرة، وذلك من باب التنويه بالظروف التداولية التي أحاطت بعملية التلفظ الأولى؛ لما لها من أثر في ترجيح الفهم الصحيحين أثناء عملية التأويل، فقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين في طليعة متن الصحيفة هذا السبب. فقال:" مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السَّكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة. فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا، واطووا عنه كشحا[10]، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام..."[11]. ثم ساق المتن كاملا.

والمتأمل لهذه المقدمة التداولية يمكن أن تتشكل لديه صورة عامة عن وضع الخطابة والخطيب في البيئة العربية في ذلك الزمن، وأهم خيوط تلك الصورة اهتمام الناس بالخطابة، وحرصهم على تعليم أصولها وضوابطها لأبنائهم، وتنافس الخطباء فيها، وأن تلك الدروس كانت تقدم على مرأى من العامة؛ ليستفيد أو يتفرج من شاء، ولعل ذلك كان في الساحات العمومية، ولكن تبقى جملة من الأسئلة غامضة الأجوبة؛ ومنها:

- هل كان التعليم مجانا أم بأجرة؟
- وهل كان عاما أم لأبناء الميسورين فقط؟
- وما الغرض من تعلم الخطابة؟

أطرح هذه الأسئلة لأن السفسطائيين اشتهروا بالمهارة في هذه الصناعة لدرجة التباهي بذلك، فقد كان (بروتاغوراس) حسب ما روي يفخر بالقدرة على" جعل أضعف الحجج تبدو أقواها"[12]. وقد انتهى بهم هذا المذهب إلى قناعة محتواها أن اللجوء للحيل الخطابية والألاعيب القولية أمر مشروع، إذا كانت محصلته في النهاية تحقيق مصلحة شخصية راجحة؛ ولذلك حرصوا على ابتداع وتوظيف الأساليب البلاغية والخطابية والتقنيات اللغوية المعينة على كسب تعاطف الجمهور وتأييده[13].

لقد جعل السفسطائيون الخطابة أهم الصنائع الإنسانية، وعدُّوا جميع الصنائع الأخرى من طبّ وهندسة ومعمار وغيرها لا يمكن أن تحقق للإنسان المدينة والمدنية، و"إنما تؤسسان في نظرهم

اعتمادا على بلاغة القول وأهل القول، وليس على أعمال أهل الصنائع والحرف"[14]. فالخطيب (RHETEUR) عندهم بيده مقاليد كل شيء " ألم يذكر "قرجياس" لسقراط أن حصون أثينا وموانيها، - أي فضاءات الاقتصاد والقوة - إنما بناها أصحاب القول لا أصحاب الصنائع"[15] . ولذاك قال"بروتاغوراس:" أوافق على أنني سفسطائي ووظيفتي هي تعليم الناس"[16].

والفن المقصود بهذا التعليم هو فن الخطابة، حتى إنهم اتخذوها مهنة يلقنونها أبناء الأعيان وغيرهم من الراغبين في ذلك، مقابل مبالغ مالية هائلة. إنه تلقين لآليات إنتاج الخطاب حتى لا تدرك العامة تلك الآليات، وبالتالي يهون عليهم إقناعهم وإيقاعهم تحت سلطة تأثير القول، دون مقاومة أو انتباه إلى ما قد يكون فيها من خداع ومغالطة[17].

وقد تمكنوا فعلا من إقناع صفوة المجتمع آنذاك بأهمية أخذ دورات ودروس في هذا التخصص، إن كانت بهم حاجة إلى امتلاك مقاليد الحكم، مركزين في ذلك على فئة الشباب من ذوي اليسار، وكانت غايتهم تعليم تلامذتهم " فن الخداع بواسطة استدلالات مضللة"[18]. أي فن خدمة الفكرة على أي وجه، وبأي وسيلة دون مراعاة لثنائية الحق والباطل، أو الصواب والخطأ. إنه " ليس من الضروري أن تَعلم شيئا عن الموضوع لتجيب". وقال:" إن في استطاعته أن يجيب كل سائل عن كل ما يسأل، فهم يعلمون كيف يكسبون الخصم بشتى الوسائل، كاللعب بالألفاظ، والاستعارات، والكنايات الجذابة، بخداع المنطق وتمويه الحقيقة؛ ومن أجل ذلك سمِّي اللعب بالألفاظ والتهريج في الحجج سفسطة"[19].

وما أردت الإشارة إليه هو تحريك الذهن لعقد مقارنة عَجْلَى بين الخطابة السفسطائية التي شاعت وذاعت في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، في ذلك الجو الديمقراطي الذي تنافست فيه الأحزاب السياسية على اعتلاء المناصب السياسية، وبين صحيفة بشر التي رشحت من مقدمتها التداولية بعض أوجه الشبة مع اختلاف الغاية، فغاية المعتزلة هي الدفاع عن العقيدة من هجمات أصحاب الملل والنحل المختلفة، وليس المناصب؛ ولذلك يفترض فيها الارتكاز على ثنائية الحق والباطل بخلاف الشطحات السفسطائية المغالطة التي كانت سببا في انتكاس البلاغة لاحقا.[20]

- **قضايا البلاغة في الصحيفة:** الجدير بالتنبيه قبل الخوض في بعض القضايا الكثيرة التي أثارها بشر في صحيفته، هو أننا لا نقصد بالبحث كل ماورد فيها وإنما نقصد مايتعلق بنشأة الدرس البلاغي، وبعبارة أوضح مايمكن أن نعده مقدمات وإرهاصات لنشأة الدرس البلاغي؛ لندرك قيمة هذه الصحيفة البلاغية من وجهة تاريخية، على الرغم من صغر حجمها، وقلة صفحاتها، وورودها في بطون مؤلفات أدبية عدّة. أقول ومن تلك القضايا:

1-التعقيد التوعر: وشاهد ذلك من الصحيفة قوله:"وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك..."[21]. إن الواقف على مااستقرت عليه البلاغة العربية من بعد السكاكي(ت626ه) يدرك قيمة هذا القول لبشر، وكأنه يتحدث عن أحد أهم شروط

فصاحة الكلام المركب، وهو التعقيد، وإليك مفهومه لتدرك مدى إصابة بشر لمعناه الاصطلاحي وإن تباعدت القرون. يقول صاحب الإيضاح:" والتعقيد أن لايكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد لخلل إما في النظم...وإما في الانتقال"[22]. أما البرقوقي شارح التلخيص فقد استعمل حتى الألفاظ التي استعملها بشر، وكأنه يشرح صحيفة بشر لا تلخيص القزويني، حيث يقول:" والتعقيد أن يُشيك المكلم طريقك إلى المعنى، ويوعر مذهبك نحوه، حتى يقسم فكرك، ويشعب قلبك، فلا تدري من أين تتوصل، وأي طريق تسلك إلى معناه"[23].

وبهذا يعد بشر أول من أكد على ضرورة اجتناب البليغ للتوعر المفضي إلى التعقيد، الذي يحول بين المتلقي والمعنى؛ وذلك لايخرج عن أحد أمرين:

- إما استهلاك المعاني وتغييبها عن بال السامع فلا يهتدي إليها أبدا، وهنا يتحول كلامه إلى مجرد هذيان، وهذا يشين الألفاظ.

- وإما أن يفهم السامع الكلام فهما خِداجا(ناقصا)، أو خاطئا، وكلاهما عِيّ بلاغي، حري بالبليغ أن يجافيه، وفي قوله:" فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك" إشارة إلى التعقيد بنوعية: اللفظي والمعنوي اللذين فصلهما المتأخرون ومثلوا لهما تمثيلا [24].

- **العلاقة بين اللفظ والمعنى:** قضية اللفظ والمعنى من القضايا القديمة في الدرس اللغوي العربي القديم التي تناولها أولا المتكلمون في حديثهم عن إعجاز القرآن، وبحثهم عن مكمنه، وتلقفها عنهم النقاد لاحقا في بحثهم عن مصدر قيمة النص الفنية وجودته، وكانت أهم إشكالية نجمت عن هذه القضية ممثلة في السؤال التالي:هل القيمة الجمالية الفنية الأدبية في النص تعود إلى اللفظ أم إلى المعنى أم إلى كليهما؟ اختلف العلماء في ذلك مذاهب شتى، فذهب الجاحظ إلى أن المزية في جودة النص تعود إلى اللفظ وحده، فعُدَّ بذلك زعيم المدرسة اللفظية،وشاهد ذلك قوله:" إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولته"[25]. ونصر هذه الفكرة أبو هلال العسكري بقوله:" وإنما الشأن في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه ونقائه "[26].

أما أنصار المعنى فمنهم أبو عمرو الشيباني، وقدامة بن جعفر، حيث يقول محمد عبد المنعم خفاجي عن الأخير: " ويقرر أن المعاني كلها معروضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر منها كالصورة، والمهم بلوغ الشاعر منزلة الجودة لا كتابته في معاني رديئة "[27]. أما الاتجاه الذي ساوى بين اللفظ والمعنى، فيرى "أن وجوه ترابط النص في النتاج الأدبي لا تكاد تقر الفصل بين اللفظ والمعنى، لأن التصور للأبعاد اللغوية تجاوز الشكليات، فالنص أيا كان يفقد قيمته، إلا إذا كان متلازما يوحد المستوى اللفظي ومعناه على نحو التلاحم الكلي".[28] وفي القرن الخامس الهجري جاء عبد القاهر الجرجاني(ت471) ، فوجد الصراع قائما على أشده بين أنصار المعنى وأنصار اللفظ، حيث احتشد كل فريق للرد على خصومه بسوق الأدلة تارة،

وبليّ أعناقها تارة أخرى، فنظر الجرجاني نظر المتبصر، فأدرك أن الفصاحة والبلاغة لا تتعلق باللفظ وحده ولا بالمعنى وحده، وإنما تتعلق بهما مجتمعين في نظم ما. وقد توصل في كتابه دلائل الإعجاز إلى تقرير نظرية النظم، وهو أول من قررها في تاريخ النقد العربي، مؤكدا أن الجمال الفني منوط بالنسق أو حسن النظم ، فكما أنه لا للفظ منفردا موضع حكم أدبي فكذلك المعنى قبل أن يعبر عنه بلفظ، وإنما هو باجتماعهما في نظم يكونان فيه موضع استحسان أو استهجان[29].

والناظر في صحيفة بشر يجزم بأنها كانت الأساس الأول لمذهب عبد القاهر الجرجاني الذي سار عليه المحدثون من بعده بلا منازع، و ذلك في إشارته إلى التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي دلالة على عدم تفضيله لأحدهما على الآخر، فقديكون العيب في اللفظ وقد يكون في المعنى، وقد يكون الشرف في اللفظ وقد يكون في المعنى، ودليل هذا قوله "ومن أراغ (أراد)معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما"[30].

- **مطابقة الكلام لمقتضى الحال:** أعتقد أن بشرا هو أول من أشار إلى هذه الفكرة في صحيفته بقوله:" والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، ومايجب لكل مقالم من مقال"[31] .

وقد تلقى علماء المسلمين بكل أطيافهم مقولة بشر "لكل مقام مقال" بالقَبول، وصارت نقطة مركزية في بحوثهم و دراساتهم اللغوية والبلاغية والقرآنية؛ قناعة منهم أن إمساك المعنى وضبطه(الصواب وإحراز المنفعة) لا يتم إلا بالاستعانة بالملابسات الخارجية المحيطة بعملية التلفظ، وكان علماء البلاغة أولى الطوائف ببحث المقام، فبعد نضج البلاغة واستوائها كفن قائم، صار لفكرة المقام قيمة كبيرة، إذ عُدَّ أساس البلاغة ومعيارها، والرجوع إلى تعريفها كاف للدلالة على ذلك[32]. يقول الكسائي: "وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب"[33]. وعرفها القزويني؛ فقال: "أمّا بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته... فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب"[34].

ولم يقف بشر عند حد العبارة بل سعى في تفسيرها وبيان مجملها بقوله:" وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[35]. فبين التوافق بين الألفاظ وبين المعاني وبين أقدار المستمعين وبينهم وبين المقامات، هو سبيل المنفعة والمتعة معا.

هذه ثلاث قضايا بلاغية أشار إليها بشر بن المعتمر في صحيفته، وقد صارت فيما بعد عمدة البحث في الدرس البلاغي، ولكن ماورد في الصحيفة أوسع من ذلك، إذ اشملت أيضا مجموعة من الآراء النقدية من قبيل الموهبة الأدبية، والطبع والصنعة، والعلاقة بين المبدع والمتلقي، وطبقات

الكلام ومراتبه، وأوقات الإبداع[36]. وصدق أحمد أمين حين قال عنها :" يعد في نظرنا من أقوم ماكتب فيهما(البلاغة والنقد)، وربما كل ماكتب المسلمون في البلاغة والنقد مؤسسا عليها...فإذا قلنا إنه بفضل بشر هذا المعتزلي، وفضل الجاحظ المعتزلي أيضا تأسست البلاغة والنقد لم نبعد عن الصواب"[37]. وهو الصواب الذي لامرية فيه عند من تأمل الصحيفة وماورد فيها من آراء نقدية وبلاغية، ووازن ذلك بما آلت إليه الدراسات النقدية والبلاغية لاحقا.

- **مُجَاجة البحث:** صحيفة بشر بن المعتمر من بواكير المدونات العربية التي اشتغلت بالبحث في مقومات وأسس فن الخطابة، إذ تعد أول وثيقة بلاغية ونقدية تصل إلينا، نقلها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، وعنه تناقلها من بعده من النقاد والبلاغيين؛ مثل ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد، وأبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين، وابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة، ومن المحدثين أحمد أمين في كتابه النقد الأدبي، وشوقي ضيف في كتابة البلاغة تطور وتاريخ، وإحسان عباس في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب، وغيرهم. وتكتسب الصحيفة قيمتها العلمية من الآراء النقدية والبلاغية التي وردت فيها، وصارت فيما بعد من ركائز الدرس البلاغي من قبيل شروط فصاحة المفرد والمركب، ومطابقة الكلام لمايقتضيه حال الخطاب وغيرها.

- **المصادر والمراجع:**

[1] محمد ديان الأتليدي: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، دار صادر، بيروت، ط1،1990.

[2] الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، ط1، 1982م، ج10.

[3] الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط7، ج1.

[4] ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ج4

[5] شوقي ضيف: البلاغة تطور وتا ريخ، دار المعرف القاهرة، ط11، 1965م.

[6] وليد قصاب: التراث البلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، دار الثقافة الدوحة، قطر، د-ط، 1985م.

[7] نادية دحماني: أثر النقد الأرسطي في النقد العربي، رسالة ماجستير، جامعة البويرة، كلية الآداب واللغات،الجزائر، 2014-2015م.

[8] روبير بلانشي: المنطق وتاريخه من أرسطو إلى راسل، ترجمة: محمد اليعقوبي، دار الكتاب الحديث القاهرة، د-ط، 2004م.

[9] محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.

[10] هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، إشراف حمادي صمود، منوبة، تونس، د - ط، 1998م.

[11] أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة الجنة للتأليف والترجمة والنشر، ط5، 1964م. 1964.

[12] عمر بوقمرة: نظرية الحجاج من المقاربة المنطقية إلى المقاربة اللسانية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشلف، الجزائر، 2017م، العدد 18.

[13]الخطيب القزويني: التلخيص في علوم البلاغة: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904.

[14] محمد على جواد وآخران: صحيفة بشر بن المعتمر(دراسة تحليلية)، مجلة جامعة تكريت للعلوم، العراق، كانون الأول 2012، المجلد19، العدد12.

[15]حمدان حسين محمد: التفكير اللغوي والدلالي، وتحديات الغزو الثقافي الغربي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1،2002م

[16]أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت.

[17] سيد قطب :النقد الأدبي أصوله ومناهجه ،الطبعة الشرعيةالسادسة ،1990م .

[18]عمر بوقمرة: المقام وأثره في الحجاج والإفهام، مجلة التواصلية، المدية،الجزائر، ديسمبر2017، العدد11.

[19] عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، مكتبة الأدب، ميدان الأوبرا، القاهرة، ط17، عام 2005م.

[20]فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها،علم المعاني، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط12، 2009م.

[21]محمد أبو شوارب، وأحمد محمود المصري: المدخل لدراسة البلاغة العربية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2007.

[22]أحمد أمين: النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1963.

- الهوامش:

[1] يعود أصلهم إلى مدينة بلخ من بلاد فارس، وكانوا في الأصل مجوسا ينتسبون لجدهم الأكبر "برمك" ، الذي كان سادنا في أحد معابد المجوس، ومن أشهر ذريته الذين أسلموا خالد بن برمك الذي صار وزيرا لأبي العباس السفاح، ثم كانت نهايتهم على يد هارون الرشيد عام 186هـ . ينظر: محمد ديان الأتليدي: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، دار صادر، بيروت، ط1،1990، ص237.

[2] ينظر: الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، ط1، 1982م، ج10، ص203.

[3] الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، ج1، ص136.

[4] ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ج4، ص146-147.

[5] شوقي ضيف: البلاغة تطور وتا ريخ، دار المعرف القاهرة، ط11، 1965م، ص41.

[6] وليد قصاب: التراث البلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، دار الثقافة الدوحة، قطر، د-ط، 1985م، ص67.

[7] ينظر: نادية دحماني: أثر النقد الأرسطي في النقد العربي، رسالة ماجستير، جامعة البويرة، كلية الآداب واللغات،الجزائر، 2014-2015م، ص1.

[8] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص88.

[9] شوقي ضيف: البلاغة تطور وتا ريخ، ص39-40.

[10] أي: أعرِضوا عنه.

[11] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، 135.

[12] روبير بلانشي: المنطق وتاريخه من أرسطو إلى راسل، ترجمة: محمد اليعقوبي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، د-ط، 2004م. ص9.

[13] ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، هامش ص 31.

[14] محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص25.

[15] هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، إشراف حمادي صمود، منوبة، تونس، د - ط، 1998م، ص55.

[16] المرجع نفسه، ص61.

[17] محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر ص25.

[18] روبير بلانشي: المنطق وتاريخه من أرسطو إلى راسل، ص8.

[19] أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة الجنة للتأليف والترجمة والنشر، ط5، 1964م. 1964، ص 99.

[20] ينظر: عمر بوقمرة: نظرية الحجاج من المقاربة المنطقية إلى المقاربة اللسانية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشلف، الجزائر، العدد 18، 2017م، ص 21 ومابعدها.

[21] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، 136.

[22] الخطيب القزويني: التلخيص في علوم البلاغة، شرح:: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904،ص27-29.

[23] ينظر: المرجع نفسه، ص29

[24] ينظر: محمد على جواد وآخران: صحيفة بشر بن المعتمر(دراسة تحليلية)، مجلة جامعة تكريت للعلوم، العراق، المجلد19، العدد12، كانون الأول 2012، ص150.

[25] حمدان حسين محمد:التفكير اللغوي والدلالي ، وتحديات الغزو الثقافي الغربي ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط2002،1م، ص 203 .

[26] المرجع نفسه ، ص 203 .

[27] [3]أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر ، تحقيق وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ص 53 .

[28] حمدان حسين محمد: التفكير اللغوي والدلالي وتحديات الغزو الثقافي الغربي، ص204-205.

[29] ينظر: سيد قطب :النقد الأدبي أصوله ومناهجه ،الطبعة الشرعيةالسادسة ،1990م، ص 126 .

[30] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، 136.

[31] المرجع نفسه، ج1، 136.

[32] ينظر: عمر بوقمرة: المقام وأثره في الحجاج والإفهام، مجلة التواصلية، المدية،الجزائر، العدد11، ديسمبر2017، ص109-110.

[33] عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان، والبديع، مكتبة الأدب، ميدان الأوبرا، القاهرة، ط17، عام 2005م، ص 25.

[34]فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط12، 2009م، ص 59.

[35] شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص43.

[36] ينظر: محمد أبو شوارب، وأحمد محمود المصري: المدخل لدراسة البلاغة العربية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2007، ص12-14.

[37] أحمد أمين: النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1963، ص260-261.